الفصل السابع

محمد إسعاف النشاشيبي فارس العربية وآدابها

عبد القادر ياسين

ثمة حدثان مهمان اجتاحا الوطن العربي سنة ١٨٨٢، انعطفا بقطرين عربيين، واعتبرا محطتين في حياة هذين القطرين. حيث احتلت القوات البريطانية مصر، فيما شيد اليهود أول مستعمرة لهم في فلسطين (ريشون لزيون). وفي السنة نفسها ولد في القدس محمد إسعاف النشاشيبي(*)، ومن بعده وُلد أخواه، درار، وكوثر. والأخيرة هي والدة الصحفي الفلسطيني المخضرم، ناصر الدين النشاشيبي.

(١) نشأته

فتّح الفتى عينيه في أسرة عريقة، ذات وجاهة مالية، واجتماعية، وقد وصل الجد الأكبر لعائلة النشاشيبي(**) أحمد بن رجب النشاشيبي من مصر، مع رجال السلطان، الملك الظاهر جقمق(***). أما والد محمد إسعاف فهو عثمان بن سليمان النشاشيبي، من أبرز رجالات عصره، والنائب في «المبعوثان»، وصاحب الثراء العريض، والملكيات العقارية الواسعة، فيما والدة إسعاف هي ابنة الملقب بملك البر، مصطفى أبو غوش. وكانت أصداء الفقه، واللغة تتردد في مجالس الوالد[١].

(*) لا نعرف السنة التي وُلدَ فيها: والمذكور في أوراق الحكومة سنة١٨٩٠، وهي دون ما يرويه معاصروه، وذكر أحدهم سنة ١٣٠٠هـ -١٨٨٢م.

د.إسحاق موسى الحسيني، **هل الأدباء بشر؟**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٠، ص٧٢.

(**) في الأصل، آل النشاشيبي هم آل الجارية، لكن جدهم، أحمد بن رجب، كان يعمل في مجال مناولة السلطان الظاهر جقمق، وعلية القوم من المماليك، النشّاب (السهام) في الحروب، ورحلات الصيد. فاكتسب الجد صفته من عمله (النشاشيبي).

جلسة مع ابنة القدس، هالة العوري، في منزلها بالقاهرة، ٢٣/ ٤/ ٢٠٠٩.

(***) هو السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائي الظاهري، تقلد السلطنة في ١٩ ربيع الأول ٨٤٢هـ -١٤٣٨م. تُوفي في ٣صفر ٨٥٧هـ- ١٤/ ٢/ ١٤٥٣م، وهو من المماليك البرجية.

أرسل الوالد محمد إسعاف، بناء على نصيحة الشيخ راغب الخالدي، إلى المدرسة البطريركية، في بيروت، وهو في الثانية عشرة من عمره، لشهرتها في علوم اللغة والأدب، حيث قضى أربع سنوات متصلة. عاد بعدها إلى مسقط رأسه، بعد أن درس على أيدي أساتذة كبار، أمثال عبد الله البستاني، والشيخ محمد محيي الدين الخياط، ومصطفى الغلاييني. وقد ألم إسعاف بالفرنسية، إلى جانب العربية [٢].

عانى صاحبنا معاناة مزدوجة، أولاهما من والده، المستاء من اتجاه ابنه إلى الأدب، الذي لا يُسمن ولا يُغني. وحكمت الخصومة المديدة علاقة إسعاف بوالده. أما المعاناة الأخرى فمن استبداد السلطان عبد الحميد الثاني، الذي حرم النشاشيبي من نشر شعره في الصحف. ورغم هجران والد إسعاف لأمه، بعد زواجه من أخرى، ومنعه المصروف عن الأولى، فإن إسعاف لم يعانِ الفقر؛ لأن والد إسعاف سبق أن تنازل له عن الكثير من العقارات والأراضي، فضلًا عن أن عائلة «أبو غوش» التي تنتمي إليها والدة إسعاف كانت في بحبوحة من العيش، وأغلب الظن أن قسوة الوالد كانت وراء عزوف إسعاف عن الزواج [٣].

لقد انتظر الوالد من إسعاف أن يكون من رجال الأعمال، ليحافظ على أملاك أبيه، ويستثمرها، فوجد الابن وقد تعلق بالأدب، الذي «لا يُغني ولا يُسمن». وبلغت مسامع الوالد أن ابنه باع قطعة أرض في يافا، فثار جنون الأب، وطلب من البوليس أن يفتش عن الابن «العاق»، ويقبض عليه، إلى أن ظفر به البوليس، فعلًا، في باب الخليل بالقدس، إلا أن إسعاف أفلت من البوليس، وولى هاربًا، لكن الأب ورجال البوليس طاردوه، حتى أمسكوه في السوق الجديدة، فتجمع الناس، وذهب أصدقاء إسعاف إلى مكان الحادث، لعلهم ينقذون صاحبهم، أو يترضون الأب الهائج، ولكن على غير جدوى. وكان إسعاف يصيح «أتضرب يا عثمان فخر بلادك؟!». ثم ركب الوالد بغلته، وجعل يخاطب الأديب المرموق، خليل السكاكيني: «يا سكاكيني! هذه آخر مرة يقرأ مقدمة شمَّيِّل»! يعني مقدمة كتاب شبلي شميّل، على مذهب دارون. وقضى إسعاف أيامًا في السجن، وكان أصدقاؤه لا ينقطعون عن زيارته، ويطيِّبون خاطره. ولكن الحقد تمكن في صدره على أبيه [٤].

لقد وصل الأمر بأبي إسعاف حد محاولته تسليمه للجندية مع العثمانيين، إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨)، لكن صاحبنا نجح في الاختفاء، قبل أن ينضم إلى هيئة تدريس الكلية الصلاحية، المعفين من الجندية، بأمر السلطات العثمانية [٥].

في غمرة الحرب العالمية الأولى، عكف النشاشيبي على القراءة، بجلدٍ عجيب، وكان لا يبرح بيته أيامًا ولياليَ، مكرهًا. ومن آثاره قصيدةٌ قبَّح فيها سيرة الحكم العثماني الجائر، مطلعها:

لئن ساس أبناء المغول قبيلةً نأى الخير عنها والبلاء أقاما [٦]

بعد وفاة والده، ابتنى إسعاف دارًا من ثلاثة طوابق، خصص طابقها الثاني لمكتبته، الزاخرة بالكتب النادرة، وفتحها للأدباء والعلماء. وحين زار المحامي والسياسي المصري الشهير، سكرتير حزب «الوفد»، مكرم عبيد، القدس، عام ١٩٣١، فإن النشاشيبي استقبله على حدود لبنان، واصطحبه إلى القدس [٧].

عمل إسعاف، منذ الاحتلال البريطاني لفلسطين، في حقل التعليم. حتى أصبح مفتشًا للغة العربية في إدارة

المعارف بفلسطين، حتى سنة ١٩٢٩. فأسهم في تنظيم المدارس، وفي إصلاح التعليم، وبخاصة في مجال تدريس لغة الضاد.

دأب أديبنا على زيارة القاهرة مرة كل عام منذ سنة ١٩٢٧ ليلتقي كبار كتابها، وأدبائها، ويسلّم للأديب المصري المرموق، صاحب مجلة «الرسالة» الأدبية ذائعة الصيت، أحمد حسن الزيات، مقالات أدبية، للنشر في «الرسالة». وفي زيارته الأخيرة لمصر، سنة ١٩٤٧، حمل ثلاث مخطوطات كتب، لطباعتها في القاهرة. هي: **«الأمة العربية»، «حماسة النشاشيبي»**، و«**جنة عدن**». ومع وفاته ضاعت مخطوطاته الثلاثة هذه. فقد كان بلا زوج أو ولد[٨] يحفظ له إرثه، بما يذكرنا بعباس محمود العقاد.

انتخب عضوًا في «المجمّع العلمي العربي» بدمشق منذ إنشائه سنة ١٩١٩، وقد ترك النشاشيبي أملاكه، ومكتبته لهذا المجمّع. وأهدته الجمهورية اللبنانية عام ١٩٤٧ «وسام الاستحقاق».

بعد قرار تقسيم فلسطين، الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة (٢٩/ ١١/ ١٩٤٧)، اندلعت الاشتباكات بين المجاهدين العرب الفلسطينيين وبين العصابات الصهيونية المسلحة، فغادر صاحبنا القدس إلى القاهرة، في زيارته السنوية إياها، لكن المنية وافته هناك، فجر ٢١ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨، ودفن هناك.

(٢) تقديسه العربية

بلغ تقديس إسعاف اللغة العربية حد أن وصفها بأنها «اللغة المحمدية ... لغة القرآن ... إنها صنع الله، إنها لغة القرآن ... إنها الـحُسن رائعًا باهرًا ...». وفي مواجهة من ادعوا عجز العربية عن مجاراة العصر، وأداء معانيه، رد النشاشيبي متسائلًا: «أي علم من العلوم ناداها فما لبته؟ أي فن من الفنون دعاها فخذلته؟ ... هل تعجز لغة كتب بها الله كتابه عن أن يكتب بها البشر؟، فلو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي». مستطردًا، في ثقة تامة: «إنها اللغة العربية، لغة الباحثين، المحققين، المدققين ... لغة الخالدين»[٩]. لاحقًا، وصلت ثقة إسعاف بالعربية حد قوله: «إن العربي الأبي (وكل عربي ناطق بالضاد أبيّ) لا يرضى إلا بها العربية به ترضى».

في تـأبين فقـيد العـراق، عـبـد الـمحـسن السـعدون (٢٧/ ١٢/ ١٩٢٩)، قال إسعاف: «...وهل معتصمي، وشرفي، ومجدي في الوجود غير عربيتي؟ وهل سموتُ، وكُرِّمت عند العظام، وعند الملوك إلا بها؟...»[١٠]. على أن أديبنا ينعي العربية في وطنها[١١]. فيما اللغة العربية ـ عند النشاشيبي ـ «أبلغ لغات الكرة الأرضية»[١٢].

لذا كان طبيعيًّا أن يستهجن إسعاف النشاشيبي كيف «استبدل فريق بهذه اللغة الفصحى البليغة، الكريمة ... لغة هذا الوقت، وهي لغة تقصر براعة كل بليغ عن وصف سخفها، وركاكتها، وسماجتها، وعجمتها»[١٣].

يندب النشاشيبي حظ اللغة العربية، لما عانته من شقاء، فيبادر إلى إطلاق صفير الإنذار لدرء الخطر عن اللغة العربية، متقدمًا باقتراحات لإقالتها من عثرتها[١٤].

وقد وردت آراؤه الثلاثة الأخيرة في كتابه «**كلمة في اللغة العربية**»، الصادر في القدس، سنة ١٩٢٥، وقد وصف أحد تلامذته هذا الكتاب بأنه «دفاع عن العربية، لا يدانيه دفاع في الأدب العربي الحديث، مما أذاع صيته في البلاد

العربية عامة، والقطر المصري خاصة. إذ جهر به في جمعية (الرابطة الشرقية)، بالقاهرة، سنة ١٩٥٤، فتهافت الأدباء على لقائه، وتعظيمه. ورسالة عنوانها «**العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي**»، وهي خطبة في المهرجان الشرقي، و«**العربية والأستاذ الريحاني**»[١٥].

(٣) القرآن والرسول

من هنا نعرف سر مدى محبة إسعاف للقرآن الكريم، واعتزازه به. يقول النشاشيبي: «وجاء مع النبي العظيم كتاب كريم، بلاغة العرب الخلَّص، وفصاحة مصاقع الخطباء، وخناذيذ الشعراء، متماقرة، متضائلة، بين يدي بلاغته، وفصاحته...». ويندد النشاشيبي بكل من يشبِّه القرآن بأي كتاب. ويجمع صاحبنا بين كتاب الإسلام ونبيّه (نابغته)[١٦]. حتى يصل الأمر بإسعاف حد وصف النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه «خالق الأمة العربية»[١٧]. حيث يرى النشاشيبي بأن «محمد والعرب والمسلمون هم هداة العالمين». وإليهم يعيد صاحبنا الفضل فيما وصل إليه الغرب من تقدم ورقي. فالنبي هو موحِّد أهواء أهل الجزيرة ... مُهَدِّم عروش الطغاة، والجبابرة من الأكاسرة، والقياصرة، فتبدلت الأرض ـ في ذلك الوقت ـ غير الأرض، وغدا آباؤنا إلى طلل العلم الدارس، والمدينة الطامسة، فشادوا في مكانه صرحًا لهما محررًا»[١٨].

لأن إسعاف ابن أُسرة أرستقراطية، فقد وجدناه يلوذ بلغة الأقدمين، حريصًا على ألا يتحدث لغة جمهرة اللغويين[١٩]. فلم يترنم صاحبنا بما يترنم به كل فم، رغم اكتسابه لقب «أديب العربية الأكبر».

لذا دخل إسعاف في معارك متواصلة مع المجددين في اللغة العربية، كما جيَّش أخصامًا له، حتى من بين أصدقائه المعروفين، مثل خليل السكاكيني.

في سنة ١٩٢٤ سافر النشاشيبي إلى القاهرة، كعادته كل عام، وألقى في مقر «الرابطة الشرقية» محاضرة، بعنوان «**كلمة في اللغة العربية**»، أعادت نشرها يومية «السياسة» القاهرية، في حينه، وفيها ندد النشاشيبي بالمجددين في اللغة العربية، ما أذكى نار الصراع بينهم وبين المحافظين. وكرر إسعاف الأمر نفسه، حين دُعي سنة ١٩٢٧ إلى مهرجان تكريم أمير الشعراء، أحمد شوقي[٢٠]، حيث توثقت عرى الصداقة بين النشاشيبي وشوقي.

تخلص صاحبنا من عبء الوظيفة الحكومية، بعد أن خدم فيها عشر سنوات متصلة، وأهَّلته ثروته للتفرغ للكتابة، وإلقاء المحاضرات.

منذ سنة ١٩٣٤، أخذ يتجه دينيًّا، وبعد أن قرأ نحو تسعمائة كتاب ديني، أصدر إسعاف كتابه «**الإسلام الصحيح**» في القدس، سنة١٩٣٦[٢١].

تجلى، أيضًا، صدام إسعاف مع المجددين في اللغة العربية في الفترة التي أشرف فيها على مناهج تدريس اللغة العربية في المدارس الثانوية العربية الفلسطينية، وهنا تمكن النشاشيبي من تنظيم هذه المدارس، وتطوير نظام التعليم، بتحبيذه الأدب القديم، والتشديد على القواعد، ما أدخل النشاشيبي في معارك متلاحقة مع المجددين، أمثال السكاكيني. وفي هذا السياق وضع إسعاف «**مجموعة النشاشيبي**»، التي ضمت مختارات من الأدب القديم، أقرتها إدارة المعارف للمدارس الثانوية، وأتبعها النشاشيبي بمختارات على غرارها، حملت عنوان «**البستان**»[٢٢].

لقد سلك النشاشيبي نهج قدامى اللغويين نفسه، متشبثًا بالقرون الإسلامية الثلاثة الأولى، لغةً وأسلوبًا.

آمن إسعاف بأرستقراطية الأدب، ملتزمًا بقول الأديب الفرنسي المعروف، فلوبير: «أن يضطر الفتى، ويسكن قصرًا بندقيًا، منجدًا، أهون عليه أن ينشئ صفحة واحدة جيدة». واللغة عند النشاشيبي غاية، وليست مجرد وسيلة؛ لذا فالأديب ملزم بالتجديد، الأمر الذي لا يتأتى إلا بدراسة القرآن، ومأثورات العرب في القرون الثلاثة الأولى من الإسلام[٢٣].

لقد دارت بين إسعاف النشاشيبي وبين مصطفى صادق الرافعي رحى معركة لغوية حامية الوطيس على صفحات مجلة «الرسالة» الأدبية القاهرية، رغم كل أوجه الشبه بين النشاشيبي والرافعي، خاصة في التعصب للعربية، وغوصهما في المباحث الإسلامية. لقد أنكر الأول على الرافعي أسلوبه المفرط في التشبيه، والأخيلة، بشكل خارج عن مألوف العرب[٢٤].

غني عن القول، إن إسعاف لم يكتب من باب الترف، بل كان لا بد من حافز يدفعه للكتابة، وهكذا كل كتبه صدرت في قضايا تهمه هو بالدرجة الأولى[*].

(٤) النشاشيبي شاعرًا

حين تخرج النشاشيبي من المدرسة البطريركية، في بيروت، نظم قصيدة، كتبها بالذهب، وأهداها إلى المحيطين به. ثم نظم النشاشيبي قصيدة، استهلها، متأسيًا:

العرب مات شعورهم ... فاندبه دهرك باكيا
ولّى فولّى بعده ... أُنسي وساء مآليا
قد كنت أطمع أن أرى ... وطني بهيجًا زاهيا
فوجدته من كل علم ... أو علاء خاليا
فرثيته وندبته ... وسكبت دمعي غاليا

(*) أصدر النشاشيبي الكتب التالية:
- مجموعة النشاشيبي، القاهرة، ١٩٢٥.
- البستان، القاهرة، المكتبة السلفية، ١٩٢٤.
- كلمة في اللغة العربية، القدس، ١٩٢٥.
- قلب عربي وعقل أوروبي، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٣٤٢هـ.
- كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه، القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٢٨م.
- اللغة العربية والأستاذ الريحاني، القاهرة، ١٩٢٨م.
- الإسلام الصحيح، القدس، مطبعة العرب، ١٣٥٤هـ.
- البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الأكبر أحمد شوقي، القدس، ١٩٣٢م.
- مقام إبراهيم، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٣٥٤هـ.
- شرح أمثال أبي تمام، القدس، مطبعة النفائس، ١٩١٢.
- نُقَل الأديب، بيروت، ١٩٥٦، (جمعها تلميذه، د. إسحاق موسى الحسيني)

فسعادتي يا ابن الكرام وبغيتي ومراميا
أن تصبح العرب الأذلة سادة ومواليا[٢٥]

حين نجح انقلاب «الاتحاد والترقي»، في إستانبول، وأصدر النظام الجديد دستورًا، دعا النشاشيبي إلى التخلص من آثار السلطان عبد الحميد الثاني، وحذَّر النشاشيبي من استخدام الدين أداة تفرقة وتضليل:

أنزلوه عن عرشه مستكينا وأذلوه في الورى إذلالًا
قوَّضوا من صروحه كل عال فغدت بعد نضرة أطلالًا

تنبه النشاشيبي، مبكرًا، للخطر الاستعماري، فنظم قصيدة «فلسطين والاستعمار الأجنبي»، وفيها خاطب إسعاف وطنه فلسطين:

سوف تشكين وتبكين دمًا يوم لا يُجدي ولا يُغني البكاء
فدعوا شحناءكم يا هؤلاء وانبذوا البغضاء نبذًا والعداء
إن الاستعمار قد حاز المدى دون أن يعدوه عن سير عداء
إن هذا الداء قد أمسى عياء فتلافوه سريعًا بالدواء
إنها أوطانكم فاستيقظوا لا تبيعوها لقوم دخلاء[٢٦]

لأن النشاشيبي داعية عِلم نراه ينشد:

إن ذا العصر عصر علم وبحث ليس فيه لجاهل من هناء
إن ذا العصر عصر كدح ودأب ليس فيه لغافل من بقاء
تتبارى فيه البرايا وتسعى وتجارى والفوز للأقوياء[٢٧]

حين مات ليوتولستوي، شارك إسعاف حافظ وشوقي في رثاء ذاك الأديب الروسي الشهير:

يا رسول السلام مَن للسلام يوم تذكي نار الوغى في ضرام
من يجير الضعيف بعدك أو من يرتجيه في الكارثات الجسام
أظلم الكون حين بنت فبتنا حلفاء الأشجان والآلام[٢٨]

لقد دأبت النوادي الرياضية على الاحتفاء بمن يفد على فسطين من الأدباء وكبار الصحفيين، كتلك الحفلة التي أقامها النادي الرياضي بالقدس في بستان أنتيموس، في مارس/ آذار ١٩٢٠، للصحفي اللبناني الكبير، سليم سركيس، وفيها ألقى إسعاف النشاشيبي كلمة رائعة، كما ألقى الشاعر العراقي المبدع معروف الرصافي قصيدته السينية الشهيرة. وجرت الحفلة في مدرسة روضة المعارف[٢٩].

لقد نفر النشاشيبي من الوظيفة الحكومية، وشجع على التوجه للصناعة، والتجارة، والزراعة، فنظم قصيدة:

عشقوا الوظائف ضلة لهداهمو	ورأوا بها العلياء شامخة الذرى
خالوا السعادة عندها أوما دروا	أن الرزايا في الوظائف والشقا
لم يبغـها إلا الـذي هو جاهل	بحقائق الأكوان مأفون الحجى
نبذ الصناعة والتجارة والزرا	عة مؤثرًا يا ويله مر الجنى(٣٠)

حين توفي، في مصر، أمير الشعراء، أحمد شوقي بك، سنة ١٩٣٢، لم يتأخر النشاشيبي عن رثائه، وفاءً للصداقة الحميمة التي ربطت بينهما، وقد بيّن النشاشيبي الخدمات الجليلة التي قدمها للغة العربية وللقضايا العربية، ودعا الأول إلى أن «يكرّم لفظ شوقي في الشعر، كما كُرّم معنى»(٣١).

ما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، حتى حط النشاشيبي الشاعر رحاله، ولم يشأ أن يشيع شعره، الذي نظمه قبلها، على كثرته. لقد أراد أن يكون أديبًا من الطراز الأول، ولم يحله شعره في هذه المرتبة فزهد فيه، غير آسف(٣٢).

(٥) إسعاف في الصحافة

جاء حين من الدهر عمل فيه النشاشيبي في الصحافة، وتولى رئاسة تحرير مجلة «الأصمعي»(*)، ومجلة «النفائس»(**)، كما أسهم في تحرير مجلة «المنهل»(***)، فضلًا على مواظبته على الكتابة في مجلات أدبية مختلفة، أهمها «الرسالة»، كما سبق وبيّنا.

حمل انقلاب عسكري «الاتحاد والترقي» إلى سدة السلطة في إستانبول، صيف ١٩٠٨، وادعت تلك الجماعة بأنها تبغي تحقيق الإخاء العربي ـ العثماني، ما دفع بعض العرب إلى تشكيل جمعية حملت الاسم نفسه، توهُّمًا من هذا البعض أن الأمر جاد لا مزاح فيه.

أخذت الصحافة دفعة بالتوازي مع إشاعة الوهم بانفتاح «الاتحاد والترقي» على القومية العربية، فأصدر حنا العيسى مجلة «الأصمعي» في سنة الانقلاب ذاتها، وتولى إسعاف النشاشيبي رئاسة تحريرها، لفترة من الزمن، وأعطى نفسه اسمًا كتابيًا، هو «أبو الفضل»، تيمنًا ببديع الزمان الهمذاني، فيما حمل زميله في تحرير المجلة، خليل السكاكيني، اسم «أبو الطيب»، لولعه بالمتنبي. ووقّع العيسى مقالاته بأبي السعيد، تيمنًا بالأصمعي، الذي حملت المجلة اسمه(٣٣).

(*) **الأصمعي**: أدبية، نصف شهرية، صاحب امتيازها هو حنا عبد الله العيسى، وقد صدر العدد الأول منها في ١/٩/١٩٠٨.

- **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الثاني، المجلد الرابع، بيروت، ١٩٩٠. (انظر: عبد القادر ياسين، الصحافة العربية في فلسطين، ص٤٣١).

(**) **النفائس**: أدبية أسبوعية، صدرت في مدينة حيفا، وصاحب امتيازها هو خليل بيدس، وقد صدر العدد الأول منها في ١/١١/١٩٠٨، وعمّرت زهاء تسع سنوات، تغير اسمها، خلالها، إلى «النفائس العصرية».

- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- الحسيني، مصدر سبق ذكره، ص٧٥.

(***) **المنهل**: شهرية صدرت في القدس، بتاريخ ٥/٨/١٩١٣، صاحبه ورئيس تحريرها هو محمد موسى المغربي.

- الموسوعة، مصدر سبق ذكره، ص٤٣٢.

كما لم يخلُ عدد واحد من «النفائس» من شعر النشاشيبي، أو نثره. وفي سنة ١٩١٢، نشر إسعاف في «النفائس» سلسلة مقالات، تحت عنوان «أمثال أبي تمام»، سرعان ما جمعها إسعاف في كتاب حمل الاسم نفسه[٣٤].

كذلك نشر النشاشيبي مقالاته في «المنهل»، مستعينًا بما يكتبه شبلي شميِّل، في مصر، عن النشوء والارتقاء، وما ينشره فرح أنطون عن أفكار بيئته. ورغم إيمان النشاشيبي بالإسلام، واعتزازه بالسلف، فإن النشاشيبي ألح على ضرورة الأخذ بأسباب التقدم، «وإلا ظللنا لأهل الغرب أرقاء، أذلاء، والجاهل للعالم، في كل زمان، عبد وقن». حسب محاضرة ألقاها، في بيروت، قبل أن يصدرها في كتاب، هو «قلب عربي وعقل أوروبي».

في السياق نفسه، نشر إسعاف النشاشيبي مجموعة مقالات معظمها في جريدة «المهذب» عن أدباء أمثال هنريك أبسن، وإرنست هيجل[٣٥].

منذ سنة ١٩٣٧، بدأ إسعاف الكتابة في مجلة «الرسالة» الأدبية القاهرية ذائعة الصيت، التي ترأس أحمد حسن الزيات تحريرها. وفيها نشر النشاشيبي مقالاته في باب استحدثه، تحت عنوان «نُقُل الأديب»(*)، وهو الباب الذي استمر زهاء عشر سنوات متصلة، قبل أن يجمعها تلميذه، د. إسحاق موسى الحسيني في كتاب صدر، لاحقًا، في بيروت، بعد وفاة صاحبه بثماني سنوات[٣٦].

(٦) موقفه من التقدم الغربي

رغم أن إسعاف كان شديد التقديس للسلف، قوي الإيمان بالإسلام والمسلمين، فإن هذا كله لم يمنع النشاشيبي من تقدير التقدم الغربي، وإن اعتبره ثمرةً للتقدم العربي الإسلامي السالف. من هذا المنطلق وضع النشاشيبي كتابه «**قلب عربي وعقل أوروبي**»، سنة ١٩٢٤، داعيًا إلى الاستمساك بعروة عربيتنا الوثقى[٣٧].

رصد صاحبنا مآثر التقدم الغربي، المتمثلة ـ برأيه ـ في النظام، المقترن بالهيبة، وبالعلم، والفن، والـجَلَد في العمل، والابتداع، والوطنية، والحرية، والجامعات، والعصامية، والأخلاق[٣٨].

يؤكد النشاشيبي «... فليس ثمة عاصم، وآن أويت إلى المريخ....فالمدنية الغربية فيها معقلنا، وفيها سد الصين، وفيها المنجاة من كل فعل، شرقي أو غربي مقتحِم». ويستهجن النشاشيبي موقف ذلك العربي الذي يدير ظهره للتقدم الغربي. وينتهي صاحبنا إلى حث العرب على الاقتداء بالغرب في تقدمه ذاك[٣٩]. وتكررت دعوة النشاشيبي هذه في العديد من كتبه.

في السياق نفسه أخذ النشاشيبي على العرب المعاصرين تخلفهم في مجال الإيمان بالعقل والعلم، على عكس أسلافهم، الذين خلقوا العصر الذهبي للإسلام[٤٠].

(*) **نُقُل الأديب**: تضمنت عرضًا للثقافة العربية، على اختلاف قطوفها، وتباين ألوانها. وبلغ عدد ما نشره النشاشيبي منها ٩٦٩ نادرة. وكان آخر ما نُشرَ منها في عدد ١٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨، قبل يومين من وفاة النشاشيبي. وقد اختارها من بين مئات أمهات الكتب. مثل: عيون الأخبار، الحيوان، شرح نهج البلاغة، معجم البلدان، خاص الخاص، اليتيمة، تاريخ الطبري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، الأغاني، سيرة ابن هشام، البيان والتبيين، نهاية الأدب، محاضرات الأدباء، النجوم الزاهرة، الاقتضاب في شرح الكتاب، تاريخ بغداد، عيون الأنباء، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، نفح الطيب، والكتابات.

الناشف، مصدر سبق ذكره، ص٢٨.

بعد أن انقشع غبار الحرب العالمية الأولى، سنة ١٩١٨، نم تعيين النشاشيبي مدرسًا للغة العربية في المدرسة الرشيدية بالقدس، ثم مديرًا للمدرسة نفسها، قبل أن يترقى إلى مفتش إداري لمنطقة القدس، في إدارة المعارف. وفي سنة ١٩٢٣ اختير عضوًا في «المجمع العلمي العربي»، في دمشق، وأخذ صاحبنا يكتب في مجلة المجمع، ابتداء من السنة التالية لنيله العضوية.

اللافت أن النشاشيبي حين عيِّن مفتشًا عامًّا للغة العربية في فلسطين، اختلف مع صديق عمره، خليل السكاكيني، المفتش الآخر للعربية. وتمحور الخلاف حول اللغة العربية، وأساليب تدريسها. وهو الخلاف الأزلي بين الأصالة والمعاصرة، حيث تحيَّز النشاشيبي للأولى، فيما أخذ السكاكيني بالمعاصرة. وأخذت شقة الخلاف بين الصديقين في الاتساع، حتى تطورت إلى ما يشبه القطيعة.

(٧) نسيج وحده

زهاء ستة وستون عامًا عاشها إسعاف النشاشيبي، راهبًا في محراب اللغة العربية، مقاتلًا في سبيل صون عفتها العريقة.

في اليوم التالي لوفاته، أملى السكاكيني على المذيع الفلسطيني، سبيرو العيسى، كلمة في الفقيد، لتذاع في «إذاعة القدس»، واعتبر السكاكيني إسعاف «إمامًا من أئمة الأدب، واللغة، وعلوم اللسان. عرف اللغة العربية، مألوفها وغريبها، فكان كأنه معجم لسان العرب يمشي على قدمين. عرف علوم اللسان، من صرف، ونحو، ومعان، وبيان، مما لم يلد أحد يدانيه فيه ... لم يقتنِ الكتب ليزيِّن بها قصره، ولكن ليبحث، وينقِّب. وقد كانت مجالسه أجمل المجالس، لم يلقه أحد إلا استفاد منه. لم يطلب العلم لاستثماره، والاستفادة منه، ولو فعل لكان من كبار الأغنياء ... [بل] لأجل العلم ... كان ... وافر المروءة ... كان بيته كعبة القُصَّاد، لا تزوره إلا وجدت فيه أهل العلم، والفضل، يتجاذبون البحث في هذا الموضوع، أو ذاك. وكان إذا تكلم كأنه يغرف من بحر ... كان أستاذ نفسه، وإن كان حريصًا على الاعتراف بفضل أساتذته.

«كان وهو صبي يحب الزعامة، وكان في ذلك يشبه أخي يوسف ... ولم يكن يمر يوم إلا عبأ الواحد فرقته، وجهَّزها بالعصي، وزحف إلى منطقة نفوذ الآخر. فيتلقاه بفرقته. ونشب القتال...»[٤١].

أما صاحب «الرسالة»، ورئيس تحريرها، فقال في رثاء إسعاف النشاشيبي: «...كان مجلسه ندوة علم، وأدب، وفكاهة. لا تُذكر مسألة إلا كان له عنها جواب، ولا تُثار مشكلة إلا أشرق له فيها رأي، ولا تُروى حادثة إلا ورد له عليها مَثَل، ولا يحضر ندوة أديب مطلع إلا جلس فيها جلسة المستفيد، وكان نسيج وحده، في الأسلوب، والخط، والحديث، والتحليل. أسلوبه عصبي، ناري...خطه نمط عجيب بين الكوفي والتعليق... وحديثه نبراتٌ قوية ... وانفعالات شتى تتعاقب على قسمات وجهه، وأصابع يده، وتحصيله من العجب العجاب، لا تستطيع أن تذكر كتابًا من الكتب العربية لم يقرأه، ولا بيتًا من شعر الفحول لم يحفظه، ولا خبرًا من تاريخ العرب والإسلام لم يروِه، ولا شيئًا من قواعد اللغة، ونوادر التركيب، وطرائف الأمثال لم يعلمه، فهو من طراز (أبي عبيدة)، و(المبرد)؛ ولذلك كان أكثر ما يكتب تحقيقًا، واختيارًا، وأمالي أنه كان خام طبقةٍ من الأدباء اللغويين المحققين، لا يستطيع الزمان الحاضر، بطبيعته، وثقافته، أن يجود بمثله»[٤٢].

نأتي إلى أديب ولغوي من القدس، تتلمذ على يدي إسعاف النشاشيبي، ورأى بأننا «نظلمه كثيرًا، إذا عددناه في مرتبة المعلمين، وأخذناه بالأحكام الحديثة، فقد كان أديبًا، قبل أن يكون معلمًا. وكان فهمه للأدب، على نحو خاص، يلتئم مع مزاجه، ودراسته الذاتية العميقة، وكان تعليمه أشبه بالتأديب المعروف في العصور العربية القديمة. ومع ذلك بلغ تأثيره في طلابه حدًّا لم يبلغه كثير من المعلمين المحدثين. وما زال طلابه، حتى اليوم، يروون الشواهد، والمختارات، التي كان يمليها عليهم، ذلك أنه كان صاحب مذهب في الأدب، آمن به، وأخلص له، مع غيرة متناهية، وحماسة عظيمة»[٤٣].

كان إسعاف النشاشيبي نسيج وحده، في ثقافته، ومجالسه، وأحاديثه، وأسلوبه، وطراز حياته. يقول الأديب واللغوي نفسه: «لا نعرف أديبًا عربيًّا معاصرًا أحاط بالأدب القديم إحاطته، فقد قرأه قراءة متفحص، مدقق، وروى عيونه عن ظهر قلب، ووقف على مواطن الإبداع فيه. فنراه يقف عند القرن الثالث الهجري... ويرى الإعجاز في القرآن، والحديث، والكامل للمبرد ... أما كلام ابن المقفّع، والجاحظ، والصابي، والهمزاني، والرضي، والمعرّي، والحريري، وأمثالهم، ففيه لين، وارتباك، وتخطيط، وإسهاب، وتعمُّل، وزخرفة، كما يرى الأدب الحديث فجًّا، ركيكًا، وكانت العبارة، في نظره، الحجر الذي يتكون منه الجدار، فالعبارة القديمة متينة السبك، محكمة، وأراد أن يحاكي القدامى، وأن يأتي بعبارة كعبارتهم، إحكامًا وإتقانًا، وراض نفسه طويلًا على هذه المحاكاة، حديثًا وكتابةً، وظل خمسين عامًا يهتدي بهدي القدامى، مؤتمًّا بإيمانهم». وعلى لسان المستشرق الشهير هـ. م. ر. جب ـ وقد التقى إسعاف النشاشيبي ـ يُردف الأديب واللغوي إياه: «من لا يعرف النشاشيبي يداخله الظن أنه رجل متقعِّر، متكلف، ثقيل الظل». حيث كان النشاشيبي يخاطب الخاصة والعامة على السواء بأسلوب عربي فصيح ... وكان أسلوبه في الكتابة عربيًّا قديمًا، يكثر فيه الغريب، والشواهد، والاستطراد، والعبارات الأنيقة، المتينة، المحكمة، والتعبير المستقيم، دون استعارة، أو كناية، أو تشبيه، أو صور خيالية، أو حتى إعمال الخيال، كما أن ألفاظه لا تجد فيها لفظة مولّدة، أو أعجمية، يُكثر من الاستشهاد بشعر القدامى، ونثرهم، وجمله قصار، وذات فواصل أشبه بفواصل القرآن، كما كان أسلوبه ناريًّا، يتفق ومزاجه الحاد.

«ربما لهذه الأسباب لم تكن هناك قيمة كبيرة للشعر القليل الذي نظمه النشاشيبي، فقد تناول موضوعات قومية اجتماعية، بمعان مسبوكة، وأسلوب تقريري، يكثر فيه التكرار، والتوكيد، والتهويل... وليس في شعره الأناقة، ولا قوة الديباجة، ولا الخيال الكبير المميَّز»[٤٤].

كان الأديب واللغوي نفسه قد قيَّم النشاشيبي، بأنه «كان أديبًا فذًّا، لا نظير له بين أدباء عصره. جاهد ليبدع في النثر، إبداع صاحبه أبي تمام في الشعر، فغاص في كثير من أقواله غوصه. وتأنَّق تأنقه، وتحلَّى تحليته، ورمى بتلك القرون الطوال وراء ظهره، ليظهر في ثوب القرن الثاني الهجري. ومهما قيل في أدبه، فإنه عاد بالإسلام إلى القرن الثاني، بل إلى القرن الأول، وكان ما أراد، دون أن يقصد ما كان. فقد بدأ شاعرًا، وأديبًا منشئًا، وناقدًا، وراوية، وانتهى فقيهًا مجتهدًا، قوي الحجة، ناصع البيان، وكأنه من فقهاء المسلمين، في صدر الإسلام، يتخذون اللغة وسيلة للتفقه في الدين، وفهم أسرار القرآن الكريم»[٤٥].

لذا حين نعاه الأديب واللغوي، تلميذه، إسحاق موسى الحسيني، قال: «وهكذا، انطفأت شعلة كان لها سنى البرق، وأريج المسك»[٤٦].

هوامش الفصل السابع:

(١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- تيسير الناشف، **مفكرون فلسطينيون في القرن العشرين**، نيوجرسي، الدار الأمريكية للنشر، ١٩٨١، ص ١٠.
- أحمد عمر شاهين، **محمد إسعاف النشاشيبي أديب العربية**، دمشق، دار المبتدأ، ١٩٩٢، ص٨ - ٩.
- د.عبد الرحمن ياغي، **حياة الأدب الفلسطيني الحديث**، بيروت، المكتب التجاري، ١٩٦٨، ص١٦٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص٩.
- الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٣.
- أدهم آل جندي، **أعلام الفن والأدب**، ج١، دمشق، ١٩٥٤، ص ٣٧٣.
- ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٤، ١٦٠.

(٣) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٢.

(٤) خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**، ط٢، بيروت، الأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٨٢، ص ٣٨٢.

(٥) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٦.

(٦) الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٧.

(٧) الناشف، **مصدر سبق ذكره**، ص١٠.

(٨) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص٦.

(٩) محمد إسعاف النشاشيبي، **البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الأكبر أحمد شوقي**، القاهرة، ١٩٣٢، ص٢٠.

(١٠) محمد إسعاف النشاشيبي، **العراق في سبيل الحرية**، د.ت، ص ٧.

(١١) **مجموعة النشاشيبي**، الكتاب الأول، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤١هـ مقدمة الكتاب.

(١٢) محمد إسعاف النشاشيبي، **كلمة في اللغة العربية**، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥، ص ٨.

(١٣) **المصدر نفسه**، ص ٦ - ٧.

(١٤) **المصدر نفسه**، ص ٥ - ٨.

(١٥) الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨.

(١٦) النشاشيبي، كلمة...، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥-١٦، ٦٦-٦٧، ٨٩ -٩٠.

(١٧) النشاشيبي، البطل...، **مصدر سبق ذكره**، ص٧٩-٨٠.

(١٨) إسعاف النشاشيبي، **مقام إبراهيم**، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٣٥٤هـ ص٢٣- ٢٤.

(١٩) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢١ - ٢٢.

(٢٠) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص٩، ١٦، ١٧، ٢١ - ٢٢، ٢٥ - ٢٦.

- الناشف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥.
- ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥٠ - ٣٥٤.

(٢١) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٨.

(٢٢) **المصدر نفسه**، ص ٢١.

(٢٣) **المصدر نفسه**،ص٢٢.

(٢٤) الناشف ، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٥.

(٢٥) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- إسحاق موسى الحسيني، **هل الأدباء بشر؟**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٠، ص ٧٤ - ٧٥.

- ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٤.

(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ١٦٧.

- **النفائس العصرية** (القدس)، الجزء١٢، المجلد الثاني، ١٩١٠، ص٥٧٦ - ٥٧٧.

(٢٧) **النفائس العصرية** (القدس)، الجزءالأول. السنة الثالثة، ١٩١١، ص ٤٣ - ٤٤.

(٢٨) ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٨.

(٢٩) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

- **المصدر نفسه**، ص ١٠٠.

- **النفائس العصرية** (القدس)، الجزء١٧، السنة السابعة، ١٩٢٠، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٣٠) ياغي، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٣١) الناشف، **مصدر سبق ذكره**، ص٢١.

(٣٢) الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٩ - ٨٠.

(٣٣) السكاكيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨٢- ٣٨٣.

(٣٤) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣.

(٣٥) **المصدر نفسه**، ص ١٤.

(٣٦) **المصدر نفسه**، ص ١٩.

(٣٧) إسعاف النشاشيبي، **قلب عربي وعقل أوروبي**، القدس، ١٣٤٢هـ، ص ٣ - ٤، ١١.

(٣٨) **المصدر نفسه**، ص ١٣.

(٣٩) **المصدر نفسه**، ص ١٣ - ١٨.

(٤٠) شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص١٥.

(٤١) السكاكيني، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٨١.

(٤٢) أحمد حسن الزَّيات، محمد إسعاف النشاشيبي، **الرسالة** (القاهرة)، العدد ٧٦١، فبراير/ شباط ١٩٤٨.

(٤٣) إسحاق موسى الحسيني، **أديب العربية: محمد إسعاف النشاشيبي**، القدس، مركز الأبحاث الإسلامية، مؤسسة دار الطفل العربي، ١٩٨٧، أورده شاهين، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠ - ٢١.

(٤٤) **المصدر نفسه**، الصفحتان نفساهما.

(٤٥) الحسيني، هل...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٠.

(٤٦) **المصدر نفسه**،الصفحة نفسها.

obeikan.com

الباب الخامس

ساسة مناضلون